

طبيعي جدا أن يكون في الحياة أشرار و أوغاد وسفلة لكن غير الطبيعي هو أن يكون لهؤلاء السفلة فلسفة يبررون بها أفعالهم بل ويحاولون إقناع الناس أن ما يفعلونه هو طبيعي وأيضا ضروري بل أنهم يصلون إلى درجة من التبجح يرون معها أن اختياراتهم وأفعالهم هذه هي الصواب الكامل الذي لا يرون غيره صوابا في حالة من الاعتزاز بالإثم تبعث على النفور والاشمئزاز.. وما أكثر هؤلاء الذين يدافعون عن سفالتهم ووقاحتهم إلى حد أنهم يجعلون منها فلسفة في الحياة.. والسفالة في حد ذاتها أمر كريه وقبيح ومرفوض لكن أن تكون للسفالة فلسفة فهو بعينه الأمر الذي يسبب الحيرة والدهشة لأننا نكون أمام موقف غاية في التبجح والجرأة والوقاحة.

التاريخ ملئ بنماذج كثيرة لفلسفة السفالة هذه التي تدافع عن القبح والرذيلة وسوء الخلق وتبحث لها عن أسباب و مبررات.. كان نابليون بوناپرت أحد هؤلاء الذين توصلوا إلى هذه الفلسفة حين قال لعدد من المحيطين به أن (الشرفاء لا يصلحون لشيء) هذه العبارة العجيبة التي قالها نابليون الذي عاش حياة مليئة بالتجارب الصعبة والقاسية تسهل علينا فهم المجتمعات المضطربة التي تنتشر فيها السفالة حيث يفشل الشرفاء في تحقيق أهدافهم للأديب الفرنسي بلزاك رواية رائعة تقدم لنا نماذج لفلسفة السفالة هذه اسمها (الأب جوريو) وصف فيها هؤلاء الذين يحاولون تجميل القبح وتزيين الشر والذين لا يشعرون بالسعادة القوة إلا إذا تحققت على جثث الآخرين اسمع لـ(فوتوران) وهو ينصح الشاب الطموح (راستنيك) وهو يرسم له طريق النجاح (إنى أرى على جبينك كلمة قرأتها بوضوح هي الوصول والوصول بأي ثمن.. برافو إنك عملاق تلائمني.... أعلم انه ليست هناك مبادئ.. هناك أحداث. ليست هناك قوانين.. هناك ظروف. والرجل الناجح هو من يحتضن الأحداث والظروف لكي يسيطر عليها وينتفع بها.. إنسي المبادئ والقوانين)

حين فاز نجيب محفوظ بجائزة نوبل وصفته وسائل الإعلام الأجنبية بأنه (بلزاك) مصر ولم أتبين دقة هذا الوصف الا عندما قرأت رواية (القاهرة الجديدة) سستمع على لسان (محجوب عبد الدايم) كلاما يشابه تماما كلام (فوتوران) عن تبرير فلسفة السفالة والانحطاط. و سستمع أيضا على لسان (نيتشة) الفيلسوف الألماني المجنون وأستاذ هتلر وملهمه كلاما يبرر فلسفة السفالة والانحطاط والشراسة والانتشاء برائحة الدم ولونه (أنا لا أنضحك بان تعمل أنا أنضحك بأن تقاتل أنا لا أنضحك بالسلام بل أنضحك بالنصر..)

فلسفة السفالة هي أخطر الأمراض الاجتماعية التي يعاني منها مجتمع ما أو حضارة ما وعندما تصبح جريئة ووقحة في الدفاع عن نفسها وتبرير وجودها وتجميل وجهها فذلك إيذانا بشروع عظمة تلحق بالحياة والناس.. والحل الصحيح أمام هذه الفلسفة أن نفصحها ونعريها ونكشفها ونكشف ما فيها من تزوير وتزييف وألا ننخدع بمظاهر القوة التي تبدو فيها ولا بالثقة بالنفس والتباهي الذي يكون معها ولا بما تحققة من نجاح في الاعتداء على الآخرين هذه الفلسفة تظهر غالبا في المجتمعات التي تمر بنفس الظروف التي نمر بها الآن حيث الاضطراب المصاحب دائما لفترات التحول والانتقال. ولذا ذكر ان نابليون قال كلمته التي ذكرتها أولا في أوائل القرن التاسع عشر حين كان منطق الصراع قائم على القوة لا الحق وعلى القدرة لا العدل.. وكان الناس ينظرون بإعجاب بليد إلى التفوق والنجاح حتى لو كان مستندا إلى أسس غير أخلاقية .

تأملوا معي تطبيقات فلسفة السفالة في أحوالنا السياسية التي نعيشها الآن.. فمشهد الصراع على السلطة التي استقرت في مدار الشرعية عند حزب ورئيس تم انتخابهما من الشعب غارق في السفالة من الرأس حتى أطراف الأظافر.. ليس فقط في أكاذيب كل يوم في (الفضائيات الجوبلزية) بل على السنة سياسيين وكتاب كنا نظنهم رجال فكر ومسؤولية.. (الجوبلزية) نسبة الى جوزيف جوبلز وزير الدعاية الألمانية الذي اخترع نظرية الكذب ثم الكذب ثم الكذب فان بعض هذه الأكاذيب ستتحول إلى حقائق يوما ما.. وهو أيضا المسئول عن تعبئة الناس وشحنهم ضد اليهود الألمان لإرتكاب مذابح ليلة (كسر الكؤوس) سنة 8391م التي أحرقوا فيها عشرات الآلاف من المحلات والمنازل المملوكة لليهود.. وهو ما بدأنا نرى ما يشبهه تجاه مقرات حزب (الحرية العدالة) وعيادات وصيدليات ومحلات وبيوت أعضاؤه في شراسة وغلظة وبشاعة لم يشهدها المصريون من قبل تجاه بعضهم بعضا.. إسمع لأحد الكتاب المرموقين وهو يقول عن الرئيس محمد مرسى محرضا الناس عليه وعلى الحزب الذي يمثله (كان الدكتور مرسى شريكا لمواطنين في عملية الصندوق.. صوت له أكثرية الناخبين استنادا إلى اقتناعات وظروف عديدة لم تكن من بينها شهادة من مرشح الرئاسة بأنه وجماعته منفصلون عن أي تنظيم عالمي أو أممي!! وعن أي تيارات إقليمية كانت دائما وأبدا تكن لتطور مصر الحضارية كراهية وبغضا ورفضاً!! لم يصرح مرشح الرئاسة لشركائه في الصندوق بأن هذه الارتباطات قد تدفعه إلى التضحية بمصلحة أو أخرى من مصالح مصر القومية!!... ثم يكمل ناسفا وهادما لفكرة

الانتخابات والشرعية (أمر كثيرة أضعفت استعداد المواطنين لاستمرار الاعتداد بشرعية الصندوق... ويستمر قائلا) ولا يميز هو وجماعته وصبيانه!! بين مصري ومصري ويعلن موقفا واضحا من تدخل رموز الإرهاب في شئون الدولة الداخلية والخارجية وشئون المواطن الخاصة..) انتهى كلام التحريض المباشر على العنف والقتل والعصيان للحاكم الذى ضحى بمصالح وطنه القومية!! وسهل الإرهاب ضد مواطنيه!!.. صاحب هذا الكلام كان ولا زال مرشحا لرئاسة (المؤتمر القومى العربى) وهو يعصر مرارات قلبه حقدا وكراهية لوجود الإسلاميين فى السلطة فيكذب كما كذب جوبلز تحريضا خسيسا وسافلا على هدم الدولة وتخريب العملية السياسية.. موفرا غطاء مشروعا للعنف والبلطجة والفوضى .

هل أحدثكم عن أدوار شبعية فى وصول أموال من دولة عربية على وشك الإنهيار وأخرى إسلامية إلى أيادي البلطجة السياسية والفوضوية وتحديدا فى يد مرشح رئاسى سابق .. هل أحدثكم عن القيادة المركزية التى تكونت بعد خروج حسن عبد الرحمن من ضباط امن الدولة السابقين مع هؤلاء البلطجية والجهة الشهيرة لهدم كل ما يمكنهم هدمه وتدمير كل ما يمكنهم تدميره بدأ من 30/6 وحرق الوطن كله ولا يأتى عليهم اليوم الذى يرون فيه الإسلاميين فى الحكم والسلطة.. تأكيداً لمن يقولون أن ما نراه الآن ما هو إلا صراعا تاريخيا بين أنصار تيار (الجامعة الإسلامية) وتيار (التغريب) الذى بدأ من ثلاثة قرون وتنوع عناوينه عبر السنين.

كل صراع محتدم ومعقد كالذى نراه الآن وتغيب معه مصالح الوطن العليا وجعله مسرحا لهزات عنيفة .. أعلم أن وراءه ألف سافل وسافل كالذين حدثنا عنهم بلزك ونجيب محفوظ وتربوا على فلسفة نيتشة.. ولا بد من وضعه فى سياقه التاريخى تحت عنوانه الصحيح وإلا فستختلط علينا الأشياء على نحو كارثى.. إذا تأملنا المشهد بعين لا تغشاها الأوهام سنكتشف أن القصة ليست قصة إعلان دستورى ولا نائب عام ولا جمعية تأسيسية ولا انتخابات الزيت والسكر .. كل هذه الأشياء قابلة للتصحيح عبر مسارات العملية السياسية وإجراءاتها المعروفة وتراكم الخبرات الاجتماعية والعملية فى إنضاجها وتكونها على النحو الأمثل ..

القصة قصة فهم الحتمية التاريخية ومعرفة الكيفية التى تعمل وتتحرك بها.

ويا أيها الشرفاء تحركوا الآن وليس دقيقة بعده.

لئلا تقولوا حسرة ونדما (وعلمت حين العلم لا يجدى الفتى ** أن التى ضيعتها كانت معى)

كاتب المقالة : د / هشام الحمامي

تاريخ النشر : 29/06/2013

من موقع : موقع الشيخ محمد فرج الأصفر

رابط الموقع : www.mohammdfarag.com